

التقديم والتأخير بين مفردتي (الضرر) و (النفع) في القرآن الكريم

د. جهاد محمد فيصل النصيرات^(*)

(*) أستاذ مساعد بقسم أصول الدين، كلية الشريعة - الجامعة الأردنية - المملكة الأردنية الهاشمية..

ملخص البحث:

التقديم والتأخير من أهم الموضوعات البلاغية التي تكشف لنا عن روعة الإعجاز القرآني؛ حيث جاءت هذه الدراسة لتكشف عن بعض الأغراض البيانية للتقديم والتأخير في مفردتين قرآنيتين لطالما اقترنتا معاً وتشاطرتا التقديم والتأخير في سياقاتهما المختلفة، وهما: (الضرر) و(النفع).

فكان لا بد من الاستقراء التام لمواطن ورودهما في القرآن الكريم؛ للوقوف على الحكم البيانية لتباين الأدوار بينهما تقديماً وتأخيراً بعد دراسة متأنية لسياقاتهما ومقاصد السور التي جاءت فيها. فقد تبين للباحث أن التقديم والتأخير بين هاتين المفردتين أغراضاً بيانيةً ومقاصد قرآنية عميقة، ولم يأت هذا التقديم بينهما تلويحاً للخطاب أو تنويعاً في الأسلوب.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين، وعلى من سار على نهجهم حتى يوم الدين، وبعد.

فإن موضوع (التقديم والتأخير) من أهم مباحث علم المعاني، حيث شغل العلماء - أقدمين ومحدثين - وتشاطرته الدراسات النحوية والبيانية على حدّ سواء، في محاولة للوقوف على أسرارهِ ومراميه.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن بعض الأسرار البيانية للتقديم والتأخير بين مفردتين كثر ارتباطهما معاً في القرآن الكريم، وهما: (الضر) و(النفع)، حيث إن هاتين المفردتين تلفتان تلفتان النظر؛ لاختلاف موقعهما - تقديماً وتأخيراً - في القرآن الكريم. فجاءت هذه الدراسة تحاول الكشف عن رافد هام من روافد الإعجاز البياني للقرآن الكريم من خلال البحث عن الأغراض المختلفة لهذا التقديم والتأخير، آخذةً على عاتقها استقراء هاتين المفردتين استقراءً تاماً في القرآن الكريم، لافتةً النظر إلى دور السياق العام والخاص، وإلى أهداف السور وموضوعاتها، وأثر ذلك كله في التقديم والتأخير، فجاءت هذه الدراسة في تمهيد ومبحثين وخاتمة.

* التمهيد: وفيه مطالب:

- المطلب الأول: أهمية التقديم والتأخير على ضوء السياق والمقاصد القرآنية.

- المطلب الثاني: مفردتا (الضر) و(النفع) وروداً ودلالةً.

* المبحث الأول: التقديم لمفردة (الضر) على مفردة (النفع) في القرآن الكريم.

* المبحث الثاني: التقديم لمفردة (النفع) على مفردة (الضر) في القرآن الكريم.

* الخاتمة: وفيها عرض لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

هذا، وإن القصور هو ديدن البشر وشأنهم، فما أصبت فيه فله الحمد والمنة، وما جانبته فيه الصواب فسأصوبه إن شاء الله، شاكراً الله عز وجل في السراء والضراء.

التمهيد

المطلب الأول

أهمية التقديم والتأخير على ضوء السياق والمقاصد القرآنية

تحدث عن أهمية هذا الموضوع الكثير من العلماء - القدامى والمحدثين - ومن أولئك: صاحب (الكتاب) حيث يقول عنه: "وكأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم" ^(١).

وهذا التعليل لم يعجب الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي قال: "ولم يذكر سببويه في ذلك مثلاً، وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدّم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، ولم كان أهم، ولتخليهم ذلك صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه؛ حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف، ولم ترَ ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه" ^(٢).

وعرض صاحب (الصناعتين) للتقديم والتأخير فقال - وهو يتحدث عما ينبغي استعماله في تأليف الشعر - "وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيباً صحيحاً، فيقدم منها ما كان يحسن تقديمه، ويؤخر ما يحسن تأخيرها، ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به أليق" ^(٣). وهذا الكلام موجز ومفيد، ولكن الأنواق تتباين فيما يعد حسناً تقديمه.

وحدثنا شيخ البلاغة العربية عن أهمية هذا الموضوع فقال: "هو باب

(١) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، الكتاب، علق عليه ووضع حواشيه: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ص (١-٦٨).

(٢) الجرجاني، عبد القاهر (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م، ص (٨٤-٨٥).

(٣) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (٣٩٥هـ)، الصناعتين [الكتابة والشعر]، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٥٢، ص (١٥١).

كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتّر لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنتظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان" (٤).

وقد جعله الشيخ في نوعين أو وجهين:

"تقديم يقال: إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررت مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل.

وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعله باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه؛ وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ، ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا" (٥).

وتحدث عن هذا الموضوع أيضاً الإمام الرازي وجعله في أحد عشر فصلاً (٦).

وتناوله السكاكي - أيضاً - في أكثر من موضع في (مفتاحه)، فعرض له في مباحث الفن الثاني (المسند إليه) مبيناً أغراض تقديمه التي منها: الأهمية، والتشويق، والتفاؤل (٧).

وعرض لأغراض تقديم المسند وتأخيره في الفن الثالث، والتي منها: التخصيص، وأن يكون متضمناً للاستفهام (٨). وعرض في فصل (متعلقات الفعل) في الفن الثالث، إلى اعتبارات التقديم والتأخير وأسهب فيها (٩).

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٨٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٦) انظر: الرازي، فخر الدين (٦٠٦هـ)، نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز، تحقيق ودراسة: د. بكري الشيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م، ص (٢٩٨-٣٢٠).

(٧) انظر: السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة وتاريخ، ص (٨٤-٨٥).

(٨) انظر: المصدر السابق، ص (٩٥).

(٩) انظر: المصدر السابق، ص (١٠٠-١٠٣).

وتحدث عن أهمية التقديم والتأخير الإمام الزركشي، حيث قال عنه: "هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالةً على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق" (١٠). وعندما تحدث الإمام السيوطي عن الوجه الحادي عشر من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو (تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع) عدّ السياق العامل الأول في سبب هذا التقديم والتأخير (١١).

ومن المحدثين يقول الدكتور لاشين: "والتقديم والتأخير لغرض بلاغي، ولسر من أسرار التعبير، يكسب الكلام جمالاً وتأثيراً، لأنه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين، كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده، فيكون الأسلوب صورةً صادقةً لإحساس المتكلم وصدق مشاعره" (١٢).

ويقول الدكتور المطعني: "التقديم -بعمامة- سمة أسلوبية، لها عظيم الأثر في روعة الأسلوب وإبرازه في صورة حكيمة من الوفاء بالمعاني ومطابقتها لمقتضى الحال، سواءً أكانت هذه الحال ملاحظ فيها جانب المخاطبين أم جانب المخاطب، وهو من أقدر الفنون على كشف خبايا النفوس وسبر أغوارها، ويطوّع المعاني للاعتبارات المناسبة التي يراها البليغ حريةً بالكلام" (١٣).

(١٠) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن. تخريج وتعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ٢٠٠١م، (٣/ ٢٣٣).

(١١) انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١ هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م، ١٠ / ١٢٨.

(١٢) لاشين، د. عبد الفتاح، صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر، الرياض، طبعة عام ١٩٨٢م، ص (١٩٤).

(١٣) المطعني، د. عبد العظيم إبراهيم، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢م، ص (٧٩/٢).

وإذا كان الغرض الأساس من علم المعاني -كما يقول السكاكي - الاحتراز من الوقوع في الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره^(١٤). فإن تركيب الكلام تقديماً وتأخيراً، وحذفاً وذكرأً، وتعريفاً وتنكيراً... الخ، له دوره في مطابقة المقال لمقتضى الحال، فقد يقتضي الحال تقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم، خروجاً عن مقتضى الظاهر والمألوف ولكنه لا يخرج عن دائرة الكلام البليغ، الذي يقوم على المتكلم والمخاطب ومقام الخطاب.

ولأهمية هذا الموضوع -أيضاً- فقد تناوله أولئك الذين كتبوا عن المتشابه اللفظي في القرآن، أو عن مشكل القرآن، ذلك أن التقديم والتأخير في الكلمات أو الجمل في الآيات المتشابهة التي تتحدث عن موضوعات واحدة، يعد موهماً ومشكلاً؛ ولذلك لا بد من دفع هذا الإيهام من خلال ضم هذه الآيات المتماثلة في الموضوعات المختلفة تقديماً وتأخيراً مع مراعاة أهداف السور وموضوعاتها وسياقاتها التي جاءت فيها، وإن من شأن هذا أن يكشف لنا عن وجه رائع من وجوه إعجاز القرآن الكريم بدلاً من أن تكون هذه الفروقات بين الآيات مثلباً ينفذ من خلاله الطاعنون في قدسية القرآن. يقول د. فاضل السامرائي:

"إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال. وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن - كما في غيره - الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير، بحيث تستقر في مكانها المناسب... كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة"^(١٥)

المطلب الثاني

مفردتا (الضر) و (النفع) وروداً ودلالةً

وردت كلمة (الضر) بصيغها واشتقاقاتها المختلفة (٧٤) مرة في القرآن الكريم. يقول صاحب (اللسان): "الضَّرُّ والضَّرُّ لغتان: ضد النفع، والضَّرُّ

(١٤) انظر، مفتاح العلوم، ص ٧.

(١٥) السامرائي، د. فاضل صالح، التعبير القرآني. دار عمار، عمان، ط ٤، ٢٠٠٦ م، ص ٥٣.

المصدر، والضَّرُّ الاسم، فإذا جمعت بين الضَّرِّ والنفع فتحت الضاد، وإذا أقررت الضَّرَّ ضمنت الضاد إذا لم تجعله مصدراً، كقولك: ضررت ضراً. وقال أبو الدُّقَيْش: الضَّرُّ ضد النفع، والضَّرُّ بالضم الهزال وسوء الحال، فكل ما كان من سوء حالٍ وفقرٍ أو شدةٍ في بدنٍ فهو ضَرٌّ، وما كان ضداً للنفع فهو ضَرٌّ. والمضرة خلاف المنفعة، والضراء: نقيض السراء.

قال ابن الأثير: الضراء الحالة التي تضر، وهي نقيض السراء، وهما بناءان للمؤنث ولا مذكر لهما. والضراء: النقص في الأموال والأنفس، ومن معانيها أيضاً: الشدة. والضرير: المريض المهزول. والاضطرار: الاحتياج إلى الشيء. وقد اضطر إلى الشيء أي ألجئ إليه^(١٦). وعلى هذا فمعاني (الضر) تدور كلها على سوء الحال والشدة والضيق. يقول الراغب: "الضَرُّ سوء الحال، إما في نفسه لقلّة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه لعدم جارحةٍ ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه"^(١٧).

وعلى هذا فالضر قد يكون أمراً مادياً محسوساً، وقد يكون أمراً معنوياً لا يدرك بالحواس، وهذا ملحظ رائع من الراغب الأصفهاني.

وأما كلمة (النفع) فقد وردت بصيغها واشتقاقاتها المختلفة (٥٠) مرة في القرآن الكريم. يقول صاحب (معجم المقاييس في اللغة): "النون والفاء والعين كلمة تدل على خلاف الضر، وَنَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفْعاً وَمَنْفَعَةً، وانتفع بكذا"^(١٨). وزاد على هذا صاحب اللسان: "المنفعة اسم ما انتفع به، واستنفعه: طلب نفعه، ورجل نفوع ونفّاع: كثير النفع، وقيل: ينفع الناس ولا يضر"^(١٩). وعند الراغب:

(١٦) ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الإفريقي، لسان العرب. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، باب الراء فصل الضاد، ص(٣٢-٣٣).

(١٧) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن الفضل (٤٠٣هـ)، معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م، ص(٢٢٠).

(١٨) ابن فارس، أحمد بن الحسين بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، معجم المقاييس في اللغة. تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، بدون طبعة وتاريخ، مجلد واحد، ص(١٠٤٢).

(١٩) اللسان، باب العين، فصل النون، ص (٣٢٥/١٤).

" النفع ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصل به إلى الخير فهو خير، فالنفع خيرٌ وضده الضر"(٢٠). ويفهم من هذا أيضاً أن هذا النفع يشمل ما كان محسوساً، وما كان معقولاً كالعلم والفضل والعفة.

لقد اقترنت هاتان اللفظتان سواء أكانتا اسماً أم فعلاً في (١٧) موضعاً في القرآن الكريم في (١٣) سورة من سور القرآن الكريم: مكِّيها ومدنيها على حد سواء(٢١).

قدم في تسعة مواضع منها لفظة (الضر) على (النفع)(٢٢). وفي ثمانية لفظة (النفع) على (الضر)(٢٣). مما يدعو إلى إنعام النظر في هذه المواضع ومحاولة تلمس الأغراض البيانية للتقديم والتأخير فيها.

(٢٠) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص(٣٨٠).

(٢١) هي: البقرة، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس، الرعد، طه، الأنبياء، الحج، الفرقان، الشعراء، سبأ، الفتح.

(٢٢) هي: (البقرة/١٠٢)، (المائدة/٧٦)، (يونس/١٨، ٤٩)، (طه/٨٩)، (الحج/١٢، ١٣)، (الفرقان/٣)، (الفتح/١١). فيها مكِّي ومدني.

(٢٣) هي: (الأنعام/٧١)، (الأعراف/١٨٨)، (يونس/١٠٦)، (الرعد/١٦)، (الأنبياء/٦٦)، (الفرقان/٥٥)، (الشعراء/٧٣)، (سبأ/٤٢).

المبحث الأول

التقديم لمفردة (الضر) على مفردة (النفع)

في القرآن الكريم

المطلب الأول

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوْا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوْتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

تباينت آراء العلماء في نظرهم للوحدة الموضوعية في سورة البقرة، التي هي أطول سور القرآن الكريم. فهل كانت السورة متعددة الموضوعات أم ذات موضوع واحد وله محاور؟ يرى الإمام الشاطبي أن السورة متعددة الموضوعات، حيث يقول: "فسورة البقرة - مثلاً - كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بثَّ فيها، منها: ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها: ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها: ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها: الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك" (٢٤). على حين يرى رائد الوحدة الموضوعية في القرآن الإمام البقاعي أن للسورة موضوعاً

(٢٤) الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي (٧٩٠هـ)، الموافقات في أصول الشريعة. وعليه شروح وتخريجات للدكتور عبد الله دراز، دار الحديث، القاهرة، طبعة سنة ٢٠٠٦م، ص(٢٨٨/٣).

واحداً تدور عليه مقاطع السورة، فيقول: "مقصود هذه السورة: وصف الكتاب فقط، وما عدا ذلك فتوابع ولوازم، ولن يثبت أنه هدىً إلا بإثبات أنه حقٌ معنىً ونظماً، ولما كان المعنى أهم قدم الاستدلال عليه، فأخبر عن تماديهم على الكفر بما يكون تكذيبهم به تصديقاً له، وأتبع ذلك بذكر المنافقين، إعلالاً بأن المنفي الإيمان بالقلب، وأنه لا عبرة باللسان إذا تجرد عنه ..."(٢٥).

أما الدكتور عبد الله دراز: فقد جعل السورة مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة، أما المقاصد فهي: دعوة الناس كافةً إلى اعتناق الإسلام، ودعوة أهل الكتاب خاصة، وعرض شرائع الدين مفصلةً، وذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع"(٢٦).

ويرى الأستاذ سيد أن: "للسورة عدة موضوعات، يجمعها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها ومواجهتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة ... ومن الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول انتشارها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض ... وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين"(٢٧).

وبعد هذه التوطئة عن موضوعات السورة العامة، أقول: لقد جاءت هذه الآية مدار البحث ضمن السياق الطويل في جدال أهل الكتاب ومحاجتهم في عقائدهم ومواقفهم ودعوتهم للدخول في دين الله عز وجل، حيث بدأ هذا السياق من قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ

(٢٥) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. خرج أحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٦م، (١/٣٢).

(٢٦) انظر، دراز، د. محمد عبد الله، النبأ العظيم. دار القلم، الكويت، طبعة عام ١٩٨٤م، ص(١٦٣ وحتى آخر الكتاب).

(٢٧) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط ١٠، ١٩٨٢م، ص(٢٨/١).

يَهْدِكُمْ وَيَأْتِي فَاَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وفي ذات السياق يقول الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (٩٩) أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٩٩-١٠١]. فكان هذا التنديد والتوبيخ لبني إسرائيل على نقضهم العهود مع ربهم ومع أنبيائهم، وكل ذلك من فسوقهم وانحرافهم؛ فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لا لشيء إلا اتباعاً للأساطير الواهية إزاء الحقائق الثابتة، فاتبعوا ما يقصه الشياطين على عهد سليمان وما يضلون به الناس من افتراءات على سليمان عليه السلام. والقرآن ينفي عن سليمان الكفر ويثبتة للشياطين، وينفي القرآن - أيضاً - التهم الموجهة إلى الملكين بابل: هاروت وماروت وما ألصق بهما من تعليم الناس السحر فتنة لهم وردة عن الدين.

لكنَّ بعضاً منهم يبدو أنه كان مصراً على تعلم السحر لكي يوقع الضرر بالناس ويفرقون به بين المرء وزوجه، ثم يؤكد سبحانه بهذه الجملة المعارضة ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ويبين حقيقة فعلهم بأنهم ﴿وَيَنْعَمُونَ مَا يُضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ حيث جاءت هذه الجملة وقد اقترن فيها لفظتا (الضرر) و(النفع) بالفعل المضارع مقدماً فيه الضرر على النفع، بما يتطلبه السياق ويقتضيه المقام.

فالله سبحانه وتعالى يقرر بجلاء ووضوح أنهم ما تعلموا السحر إلا لإيقاع الضرر، وأن هذا الضرر شأنه شأن كل ذرة في الوجود لا تتحرك إلا بمشيئة الله ووفق إرادته، وإن لم يحبه الله ويرضاه.

فهذا الضرر الذي أراوده بالناس جاء في نظم يفيد الحصر والقصر بطريقة الاستثناء بعد النفي قصر فيه سبحانه وتعالى ضرهم على مشيئته، ثم بين سبحانه وتعالى أن السحر انقلب على الساحر، وأن شرهم عاد عليهم، فقال: ﴿وَيَنْعَمُونَ مَا يُضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فجاءت كل لفظة بموضعها الذي لو

قَدِّمَتْ أَوْ أَخَّرَتْ عَنْهُ لَذَهَبَ الرُّونْقُ وَلَفَسَدَ الْمَعْنَى. يَقُولُ أَبُو حَيَّانَ: "قَوْلُهُ (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الضَّرَرُ لِمَنْ يَفْرُقُ بَيْنَهُمَا ذَكَرَ - أَيْضاً - أَنَّ ضَرَرَهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَنْ يَفْعَلُ بِهِ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ أَيْضاً يَضُرُّ مَنْ تَعَلَّمَهُ، وَلَمَّا كَانَ إِثْبَاتُ الضَّرَرِ بِشَيْءٍ لَا يَنْفِي النِّفْعَ، لِأَنَّهُ قَدْ يَوْجَدُ الشَّيْءُ وَيَحْصُلُ بِهِ الضَّرَرُ وَيَحْصُلُ بِهِ النِّفْعُ، نَفَى النِّفْعَ عَنْهُ بِالْكَلِيَّةِ، وَأَتَى بِلَفْظِ (لَا) لِأَنَّهُ يَنْفِي بِهَا الْحَالَ وَالْمُسْتَقْبَلَ" (٢٨). وَيَقُولُ ابْنُ عَاشُورَ: "وَقَدْ أَفَادَتِ الْآيَةُ بِجَمْعِهَا بَيْنَ إِثْبَاتِ الضَّرَرِ وَنَفْيِ النِّفْعِ - الَّذِي هُوَ ضَدُّهُ - مَفَادَ الْحَصْرِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَيَتَعَلَّمُونَ مَا لَيْسَ إِلَّا ضَرّاً كَقَوْلِ السَّمْوَالِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْحَارِثِيِّ:

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَاتِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَ عَلَى غَيْرِ الطُّبَاتِ تَسِيلُ
وَعَدَلَ عَنْ صِيغَةِ الْقَصْرِ لَتِلْكَ النِّكَّةُ الْمُتَقَدِّمَةُ وَهِيَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ ضَرٌّ" (٢٩).

المطلب الثاني

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]

هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ مَوْضُوعَاتٍ شَتَّى وَأَحْكَامَ تَشْرِيعِيَّةٍ كَثِيرَةً تَهْمُ الْمَجْتَمَعَ الْمُسْلِمَ وَيَجْمَعُ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتُ كَمَا يَرَى - سَيِّدٌ: "إِنْشَاءُ أُمَّةٍ، وَإِقَامَةُ دَوْلَةٍ، وَتَنْظِيمُ مَجْتَمَعٍ عَلَى أُسَاسٍ مِنْ عَقِيدَةٍ خَاصَّةٍ، وَتَصَوُّرُ مَعِينٍ وَبِنَاءُ جَدِيدٍ" (٣٠). وَقَدْ افْتَتَحَتْ بِالْوَصَايَةِ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ، وَخَتَمَتْ بِالتَّذْكِيرِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشَهَادَةِ الرِّسْلِ عَلَى أَمَمِهِمْ وَشَهَادَةِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّصَارَى وَتَمْجِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرَتْ فِيهَا فَرَائِضُ وَأَحْكَامٌ لَمْ تَذْكَرْ فِي غَيْرِهَا مِنَ السُّورِ.

(٢٨) أَبُو حَيَّانَ الْأَنْدَلُسِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْغَرْنَاطِيُّ (٧٥٤هـ-)، الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ، دَارُ الْفِكْرِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ، بَيْرُوتَ، طَبْعَةُ عَامِ ٢٠٠٥م، ص (٥٣٤/١).

(٢٩) ابْنُ عَاشُورَ، مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ. دَارُ سَحْنُونِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، تُونِسَ، بِدُونِ طَبْعَةٍ وَتَارِيخٍ، ص (٦٤٥/١-٦٤٦).

(٣٠) فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ، (١٢٥/٢).

والآية مدار البحث جاءت في سياق خطاب الله تعالى لأهل الكتاب أن يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، حيث كشف السياق ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ﴾ [المائدة: ٦٨]. الكثير من انحرافاتهم عبر تاريخهم الطويل، وبينت الآيات بكل صراحة ووضوح كفر من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم، أو قال: إن الله ثالث ثلاثة. ثم دعتهم الآيات إلى التوبة والاستغفار ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ [المائدة: ٧٤]. ثم بينت الآيات حقيقة المسيح ابن مريم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [المائدة: ٧٥]. ثم جاء هذا الإنكار التوبيخي لهم بقوله: ﴿أَعْبُدُونِ﴾. وكذلك عبّر القرآن بـ(ما) بدلاً من (من) في قوله ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ علماً أن الاسم الموصول -كما يقول أبو السعود- يعود على المسيح عليه السلام وذلك "لتحقيق ما هو المراد من كونه بمعزلٍ من الألوهية رأساً، ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلاً، وهو عليه السلام وإن كان يملك ذلك بتخليكه تعالى إياه، لكنه لا يملكه من ذاته" (٣١).

وسواءً أكان الاسم الموصول يعود على عيسى عليه السلام أم على كل ما يعبد من دون الله، فإن الآية هنا قدمت الضرر على النفع وذلك كما يرى أبو السعود -أيضاً- "لأن التحرز عنه أهمُّ من تحرّي النفع، ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر، ثم جلب الخير" (٣٢). وإلى مثل هذا ذهب الألوسي (٣٣) وابن عاشور (٣٤).

(٣١) أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى (٩٨٢هـ-)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص (٣٠٦/٢).

(٣٢) المصدر السابق، ص (٣٠٦/٢).

(٣٣) انظر: الألوسي، شهاب الدين محمود (١٢٧٠هـ-)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ١٩٩٤م، ص (٣٠٦/٤).

(٣٤) انظر: التحرير والتنوير، ص (٢٨٩/٦).

والذي يبدو - والله تعالى أعلم - على وجهة هذا التعليل حيث إن درء المفسد مقدم على جلب المنافع، أن هناك مسوغاً آخر لتقديم الضرر في هذه الآية يتلاءم مع السياق الذي جاءت فيه الآية، فللسياق أهمية في تعليل التقديم والتأخير، وأستشهد في هذا بما قاله ابن دقيق العيد: "أما السياق والقرائن فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين الاحتمالات، فاضبط هذه القاعدة فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى" (٣٥) وبما قاله الدكتور المثني عبد الفتاح: "يأخذ السياق القرآني جانباً مهماً في بيان المعاني الواردة في النص القرآني، بل أحياناً يصعب فهم محمولات الألفاظ من غير تمعن السياق، سواء في ذلك سياق المقطع أم سياق السورة" (٣٦).

والسياق الذي جاءت فيه هذه الآية يتحدث عن أهل الكتاب في معرض التوبيخ والتعنيف لهم على معتقداتهم ومواقفهم المشينة فخطبهم قائلاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]. وتحدث السياق بعد ذلك عن كفر بني إسرائيل وأعمالهم ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠] فلقد بلغ بهم الاستكبار مبلغه فكذبوا وقتلوا غير آبهم بعقوبة نازلة، فقال بعدها عنهم ﴿وَحَسِبُواْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١]. ثم صرح القرآن الحكم بتكفير من يقول

(٣٥) ابن دقيق العيد، محمد بن علي، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. تحقيق: علي بن محمد الهندي، القاهرة، طبعة عام ١٣٧٩هـ، ص(٣/٣٧٢).

(٣٦) د. المثني عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية. دار وائل للنشر، عمان، ط ١، ٢٠٠٨م، ص(١٦٤).

إن الله هو المسيح ابن مريم ثم قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وبعدها بآية ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. فبعد الأمر بعبادة الله تعالى بين لهم ضرر وعقوبة الشرك به، ثم أعقب ذلك بالتهديد لهم، ثم بالترغيب ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]. فقدم الترهيب على الترغيب نظراً لتماديهم، ثم حدثهم عن حقيقة المسيح بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]. فختم الآية بالتعجب من حالهم إزاء هذه الحقائق الواضحة، ثم قال لهم منكراً وموبخاً: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٦]. فقدم الضر على النفع بما يتلاءم مع سياق الآيات في بيان عقوبة الله عز وجل لهم على تتماديهم وطغيانهم حيث قدم السياق التهديد والوعيد على الترغيب والدعوة إلى الاستغفار في هذه الآيات؛ ولذلك جاءت كل من الكلمتين في موضعها الأمثل المتلائم مع مقطع وسياق هذه السورة التي هدفت إلى تنظيم جديد لهذا المجتمع المسلم في المدينة.

المطلب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنتَهُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

هذه الآية من سورة يونس المكية، التي جاءت تعالج قضايا العقيدة وتصحيح التصور، وهي ميزات تشترك بها مع مثيلاتها من السور المكية، إلا أنه يبقى لكل سورة في نهاية المطاف شخصية خاصة وميزات محددة. وقد ارتبطت مفردتا (الضر) و(النفع) في هذه السورة في ثلاث آيات، قدم في اثنتين منها الضر على النفع، وأخر في الثالثة الضر عن النفع، كما سيأتي. وهذا يؤكد أن السياق والتناسب هو الذي يهيئ تقديم لفظة على أخرى.

فقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن الكفار الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم عندما تلى عليهم آيات الله فيطلبون قرآنًا غير هذا القرآن أو إجراء تبديل به، فيرد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه وحي الله الذي لا يستطيع النبي أن يبدله من تلقاء نفسه، فالقرآن كله مشيئة الله ووحيه في نزوله وفي تبليغه، وقد لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم عمراً من قبله [أربعين سنة] ولم يقرأ عليهم شيئاً منه؛ لأنه لم يكن قد أوحى إليه بعد. وهل هناك من هو أشد ظلماً من أن يفترى الإنسان على الله ويكذب عليه. ثم جاءت هذه الآية بعد ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِشُرءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ نَبِيٍّ خَافَ إِنْ عصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افترى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنُكُمْ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٥-١٨].

فالآية مدار البحث جاءت في معرض الحديث عما فعله أولئك المشركون وهم يدعون أن لهم شفعاء من دون الله، وهؤلاء الشفعاء لا يضرهم ولا

ينفعونهم، فقدمت الآية الضر على النفع بصيغة الفعل المضارع الذي يدل على استحضر هذه الصورة البشعة لمعبود لا يضر ولا ينفع، مع أنه سبحانه وتعالى قد قدم في سورة الأنبياء النفع على الضر فقال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦]. وقال في الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]. وذلك كما يقول ابن الزبير الغرناطي "تناسب الوارد من متصل قوله (ولا ينفعهم) بقوله بعدها (ويقولون هؤلاء شفعائنا عند الله)" (٢٧). أو كما يقول ابن عاشور: "لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها يخوفون عِبَدَتَهَا بأنها تُلحق بهم وبصبيانهم الضر، فأريد الابتداء بنفي الضر لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصَّادَةِ لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام" (٢٨).

والذي يبدو - والله تعالى أعلم وأحكم - أن سياق الآيات السابقة هو الذي سوَّغ تقديم الضر على النفع، فقد تقدمها قوله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. فقدم الإيذاء على التبشير. وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ أَلَنَارٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٧-٩]. فقدم جزاء الكافرين على ثواب المؤمنين، وقال بعد ذلك: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ

(٢٧) ابن الزبير الغرناطي، أحمد بن إبراهيم (٧٠٨هـ)، ملاك التأويل، تحقيق سعيد الفلاح،

دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م، ص (٦١٢/١).

(٢٨) التحرير والتنوير، ص (١٢٥/١١).

أَجَلُهُمْ فَذُرُّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ [يونس: ١١].
 فقدّم الشر على الخير، وقال بعدها: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ [يونس: ١٢]. فقدّم مسّ الضر على كشفه، ثم سبق هذه الآية مورد البحث قوله تعالى: ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إِنَّكَ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ [يونس: ١٧]. ففيها تلويح بعذاب الله تعالى الذي يستحقه أولئك الكافرون، وأنه قادر سبحانه وتعالى على إيقاع الضرر بهم، ثم جاء قوله تعالى بعدها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]. متسقاً تماماً ومنسجماً مع طبيعة الموضوعات التي عرضت في هذا المقطع من السورة.

المطلب الرابع

قوله تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وقد جاءت هذه الآية في سياق التحدي للشركاء المتخذين من دون الله على أن ينفعوا أو يضرّوا ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَكْبِدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ [يونس: ٣٤-٣٦]. ثم جاء الحديث عن القرآن الكريم ونفي تهمة الافتراء، ثم تحديه لهم ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ

لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ [يونس: ٣٧-٣٨]. ثم بين
القرآن الكريم أن سبب تكذيبهم بالحق إنما هو جهلهم فيه ثم تعطيهم لأدوات
ومنافذ المعرفة من سمع وبصر ﴿٣٩﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ
تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾
وَأِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا
بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأُصْمَ وَلَوْ كَانُوا
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٤﴾ [يونس: ٣٩-٤٣]. ثم ينقلنا القرآن إلى مشهد يفصح حالهم يوم
القيامة ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]. ثم في الآية
السابقة للآية مورد البحث حدثنا القرآن الكريم عن استعجالهم العذاب وإنكارهم
له ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ﴿٤٧﴾ [يونس: ٤٨-٤٩].

وقد اكتفى الكرمانى في تعليل تقديم لفظة (الضر) على (النفع) في هذا
الموضع أن يقول: "لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في
ثوابه ثانياً" (٣٩). ومع تقديرنا لرأي هذا العالم الجليل إلا أننا لا نرى أن هذه
القاعدة مضطردة، ففي آية أخرى من سورة الأعراف مشابهة لهذه الآية وعلى
لسان النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا
ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. حيث قدم النفع على الضر. وسيأتي
الحديث عن هذه الآية في المبحث الثاني من هذا البحث.

(٣٩) الكرمانى، محمود بن حمزة (٥٠٥هـ)، البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من
الحجة والبيان، دراسة وتحقيق د. السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة،
١٩٩٤، ص (١٣٠).

وارتضى ابن الزبير الغرناطي أن يكون سبب تقديم الضر على النفع في آية يونس -مدار البحث- "للمتقدم قبله من قوله (ويقولون متى هذا الوعد) فطلبوا تعجيل العذاب استهانةً وتكذيباً، ولم يعلموا ما في طلبهم من المحنة والمضرة العاجلة، فقال لهم عليه السلام بأمر الله عز وجل: إني لا أملك الضر والنفع لنفسي ولا لكم، فلا تستعجلوني ذلك فليس بيدي، فقدم الضر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه" (٤٠). ويبدو أن الاستاذ سيد ارتضى ما ارتضاه الغرناطي لنفسه فعّل تقديم الضر بقوله: "وقد قدم ذكر الضر هنا، وإن كان مأموراً أن يتحدث عن نفسه، لأنهم هم يستعجلون الضر، فمن باب التناسق قدم ذكر الضر، أما في موضع آخر في سورة الأعراف فقدم النفع في مثل هذا التعبير، لأنه الأنسب أن يطلبه لنفسه وهو يقول: (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء)" (٤١).

وأضيف هنا أن السياق السابق لهذا الآية سوّغ تقديم الضر على النفع فضلاً عما تفضل به العلماء من الحديث عن قضية استعجال العذاب، فالسياق السابق ألصق بشركائهم الضر وأسند النفع إلى الله تعالى، فشركاؤهم لم يخلقوا الخلق ولا يعيدونه، والله هو الذي يفعل ذلك، وشركاؤهم لا يهدون إلى الحق والله وحده يهدي إلى الحق، والمشركون لا يتبعون إلا الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، وهم الذين افتروا على القرآن، ووصفوه بأنه كذب واختلاق ومفتريّ. والقرآن تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فما استطاعوا، وهم الذين كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، وهم الذين كذبوا وهم الذين عطلوا نوافذ المعرفة فكانوا صماً عمياً، وهم الذين ظلموا أنفسهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] وهم الذين خسروا كل شيءٍ في أخراهم، وهم الذين أنكروا العذاب واستعجلوه.

(٤٠) ملاك التأويل. ص(١/٥٧٨).

(٤١) الظلال: ص(٣/١٧٩٧).

وعلى هذا نجد أن سياق هذه الآية قد ذكر كثيراً من مظاهر إضرارهم بأنفسهم وبالمؤمنين، فكان ملائماً تماماً أن يأتي تقديم نفي الضر على نفي النفع على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في هذا السياق، والله أعلم.

المطلب الخامس:

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

جاءت هذه الآية في السياق الطويل لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل في سورة طه، وذلك بعد أن أنجاه الله سبحانه وتعالى مع بني إسرائيل من فرعون وجنوده؛ فضرب لهم طريقاً يابساً في البحر، ففقطعوه وغرق فرعون وجنوده، ثم أنزل الله عليهم المن والسلوى حتى يأكلوا منه ويشكروا ربهم، وعندما ذهب موسى عليه السلام إلى جانب الطور الأيمن حيث واعد ربه عاد بنو إسرائيل لما تربوا عليه من الجود والكران، فسقطوا في فتنة السامري وضلالاته، مع أن الله تعالى قد حذرهم من ذلك بقوله لهم ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْتَكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدَنَكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ ﴿٨٩﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨١].

وعندما عاد موسى عليه السلام إلى قومه ورآهم على ما هم عليه قال لهم مستنكراً: ﴿يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦]. فقالوا: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٧-٨٩]. فقدم سبحانه وتعالى الضر على النفع في نفي كليهما عن ذلك العجل المعبود، ويمكن أن يقال في هذا الموضع

وما يشبهه من المواقع: إن درء المفسد مقدم على جلب المصالح، فالنفوس معلقة بدفع الأضرار قبل جلب المنافع، لكن السياق - هنا - له أثر في هذا الترتيب، فبنو إسرائيل جبلت نفوسهم على جحود النعم من ناحية، وعلى الخوف من ناحية أخرى، ولقد عانى موسى عليه السلام منهم هذا الجبن والخور والخوف على ضياع المكاسب عندما تعذروا له عن دخول الأرض المقدسة قائلين: ﴿فَإِذْ هَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. وهنا سوَّغوا عبادتهم لذلك العجل بقولهم ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]. فهم يخافون هذه الأوزار التي في رقابهم من زينة القوم التي أخذوها بغير حق.

وهكذا نجد في السياق السابق ما يسوِّغ هذا الترتيب في نفي الضر الذي كانوا يخشونه من قول الله لهم ﴿فِيحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١]. وقول نبيهم لهم ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦]. ثم هذا الخوف في نفوسهم من وقوع الضر بهم لما حملوه من الأوزار بسبب زينة القوم، فجاء نفي ملك الضر والنفع عن هذا المعبود الطاغوت ملائماً للسياق، وقدم فيه نفي الضر على النفع؛ انسجاماً مع النظم ومع المعنى.

المطلبان السادس والسابع

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢) ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

وسورة الحج مكية في موضوعاتها وأسلوبها إلا ما صحت الروايات فيه بأنه من الآي المدني كقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. التي نزلت يوم بدر. وموضوعات وقضايا سورة الحج هي

القضايا التي يعالجها القرآن المكي في الغالب، من مثل: "التوحيد، والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات الله الماثلة في صفحات الكون بارزة في السورة، وإلى جانبها الموضوعات المدنية: من الإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه الغي، والأمر بالجهاد في سبيل الله" (٤٢).

وهذه السورة ذكرت من أصناف الناس الشيء الكثير حتى لتكاد تكون مسماة باسمهم، فقد وردت فيها مفردة "الناس" (١٥) مرة، وذكرت من أقسامهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ (٢)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٨)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١١)، وجاء النداء فيها للناس مرات عديدة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١)، وقوله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٥)، ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٧)، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْمِعُوا لَهُهُ إِنَّكَ الْذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٦).

(٤٢) المصدر السابق. ص (٤/٢٤٠٦).

وهاتان الآيتان - موضع البحث - جاءتا بعد الحديث عن صنف من الناس يعبد الله على حرف ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١١). وقد جاء الحديث عن هذا الصنف من الناس بعد الحديث عن صنف من المشركين المجادلين في الله بغير علم، ولذلك قال أبو السعود عن هذه الفئة: "شروع في بيان حال المُدْبِذِينَ إثر بيان حال المُجَاهِرِينَ، أي ومنهم: من يعبدُه سبحانه وتعالى على طَرَفٍ من الدِّين لا ثَبَاتَ له فيه، كالَّذي ينحرفُ إلى طَرَفِ الجِيشِ فَإِنْ أَحَسَّ بِظَفَرٍ قَرَّ وَإِلَّا فَرَّ (فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ) دَنِيوِيٌّ من الصَّحَّةِ والسَّعَةِ (اطْمَأَنَّ بِهِ)، أي: ثَبَتَ على ما كَانَ عليه ظاهراً (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ) من مكروهٍ يعتريه في نفسه أو أهله أو ماله (انقلبَ على وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ) بذهابِ عصمته، وحبوطِ عمله بالارتداد" (٤٣). ثم بين سبحانه وتعالى عظم هذا الخسران المبين بقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢)، فهو يعبد من الأصنام أو غيرها من الطواغيت ما لا يضره إن لم يعبد، وما لا ينفعه إن هو عبده. أي هو جماد لا يضر ولا ينفع. ثم جاءت الآية الأخرى بعدها لتبين حال دعائه المذكور ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَكَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ (١٣).

وقد ذكر الزمخشري مسألة حول هذه الآية والتي سبقتها فقال: "فإن قلت: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض. قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم، وذلك أن الله تعالى سَفَّ الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضرراً ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها (لَيْسَ الْمَوْلَى وَكَيْسَ الْعَشِيرُ) وكرّر يدعو، كأنه قال: يدعو من دون

(٤٣) إرشاد العقل السليم. ص(٣٧١/٤).

الله ما لا يضره وما لا ينفعه، ثم قال: لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شافعياً لبئس المولى" (٤٤). وزاد أبو السعود: "وإيثارُ (مَنْ) على (مَا) مع كون معبوده جماداً وإيرادُ صيغة التفضيل (أقرب) مع خلوّه عن النفع بالمرّة للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعان في ذمّه، أي يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصُراخ حين يرى تضرُّره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثر النفع أصلاً لمن ضرّه أقرب من نفعه: والله لبئس الناصرُ هو، ولبئس الصَّاحبُ هو: فكيف بما هو ضررٌ محضٌ عارٍ عن النفع بالكلية" (٤٥). وبهذا يتضح سر تقديم لفظ الضر على النفع في الآيتين، ففي قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ﴾ جاءت متلائمة مع حال هذا المذبذب الذي إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، فهو ثابت مستقر في الظاهر طالما كانت الدنيا منافعها بيده، ولكنه يثور وينقلب ويرتد إذا أصابته الضراء. ثم جاءت الآيتان بعدها تبينان حال خسرانه في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا كانت خسارته أن يعبد من دون الله ما لا يضره إذا لم يعبد، وما لا ينفعه إن عبده، وهذا هو الضلال البعيد، فيما أن الضر يقلب حياته رأساً على عقب فلماذا يعبد أصناماً لا تضر ولا تنفع.

ثم جاءت الآية الأخرى لتبين عظيم خسرانه في الآخرة، وذلك حين يرى ضرر وعاقبة ما فعله في الدنيا من سوء العاقبة في جهنم، فيقول ما قال مقدماً الضر على النفع باعتبار السبب والنتيجة، فالضرر في وقوعه في عذاب جهنم هو النتيجة الحتمية لما فعله في الدنيا.

وبذلك كانت الكلمتان في مكانهما متلائمتين مع الغرض الذي سيقتا من أجله.

(٤٤) الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ومعه: حواشي الانتصاف والكاف الشاف وشرح شواهد الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١م، ص (١٤٨/٣).

(٤٥) إرشاد العقل السليم، ص (٣٧٢/٤).

المطلب الثامن

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

سورة الفرقان - التي وردت فيها هذه الآية - سورة مكية، ومحورها - كما يرى الأستاذ سيد قطب -: "إيناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية، وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتناولهم عليه، وتعننتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى، وصدهم عنه" (٤٦).

وتبدأ هذه السورة بتسبيح الله وحمده على تنزيل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وبتوحيد الله المالك لما في السموات والأرض، المدبر للكون بحكمة وتقدير دون أن يكون له شريك من ولدٍ وغيره، على حين نسب له المشركون آلهةً من دونه، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم دفع ضرٍّ أو جلب نفعٍ، فقدم الضر على النفع. ثم في سياق متقدم من هذه السورة يقول عن أولئك المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ (٥٥) فقدم النفع على الضر، وسيأتي الحديث عن هذه الآية الثانية في المبحث الثاني من هذه الدراسة.

أما عن تقديم نفي الضر على النفع في الآية الثالثة من سورة الفرقان فقد قال الإسكافي: "بنى على ما قبله، وهو (لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون). فقوله (لا يخلقون) نفي، (وهم يخلقون) إثبات، فقدم النفي على الإثبات، وكان الضر نفيًا والنفع إثباتًا، أي النفع إثبات المصالح وإيجادها، والضر نفيها، فكما قدم

فيما قبله ما نفى على ما أثبت، حمل المعطوف عليه ليكون مشاكلاً له" (٤٧).
وأضاف الكرمانى وجهاً آخر لهذه المشاكلة، وهي موافقة قوله تعالى ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لما جاء بعدها وهو قوله ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا﴾ "فما قبله نفى وإثبات وما بعده موت وحياة" (٤٨).
ومن أصحاب كتب المتشابه ذهب ابن الزبير الغرناطي إلى ما ذهب إليه صاحبه (الإسكافي والكرمانى) في مشاكلة قوله ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لما عطف عليه وعطف عليها من قوله ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٤٩). ويرى أبو السعود أن السبب في تقديم الضر "لأن دفعه مع كونه أهم في نفسه، أول مراتب النفع وأقدمها" (٥٠).

والحق - والله أعلم - أن دفع المضار وإن قدم على جلب المنافع، لكن تباين الأدوار في تقديم لفظة الضر أحياناً والنفع أحياناً أخرى يجعلنا نبحث عن سبب آخر أكثر انضباطاً وإقناعاً، ولا شك أن للسياق - كما تقدم - الأثر الأوضح والأضبط في هذا التباين، وأعتقد أن السياق - فعلاً - قدم السلب على الإيجاب، والنفي على الإثبات. فقال تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يُلِكْ أَشْهُمًا وَلَا سَمَوَاتٍ وَلَا أَرْضٍ وَلَمْ يَنْخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ۝﴾
وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا [الفرقان: ٢-٣]. فنفى سبحانه الشريك والولد، ثم أثبت أنه الخالق لكل شيء، ونفى عن آلهتهم القدرة على الخلق، وأثبت أنها مخلوقة، ونفى عنها القدرة على الإماتة والإحياء

(٤٧) الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٤٢٠هـ)، درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني. دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م، ص (١٨١).

(٤٨) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص (١٨٩).

(٤٩) انظر: ملاك التأويل، ص (٧٠١/٢-٧٠٢).

(٥٠) إرشاد العقل السليم، ص (٤٩٣/٤).

والنشر، فكان ملائماً تماماً لتقديم لفظة الضر؛ لا سيما وأن الآيات استهلكت ببعض ضررهم من نسبة ما لا يليق لله سبحانه وتعالى.

المطلب التاسع

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

سورة الفتح التي جاءت فيها هذه الآية سورة مدنية، وهي كما يبدو نزلت عقب صلح الحديبية الذي جرت فيه الأحداث المعروفة، فنزلت بعدها هذه السورة مفتحة بالبشرى للرسول صلى الله عليه وسلم بالفتح المبين، ومن ثم الامتنان على المؤمنين بالسكينة وتبشيرهم بالمغفرة والثواب. وتحدثت السورة عن مواقف من هذا الصلح كموقف المنافقين والأعراب، ومواقف المؤمنين وخلجات نفوسهم، وعنبيعة الرضوان. وتختتم السورة بالثناء على النبي صلى الله عليه وسلم والفئة المؤمنة معه.

والآية مدار البحث جاءت في معرض الحديث عن الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويكشف القرآن ما دار في خواطريهم من سوء الظن بالله تعالى، وتوقعهم الشر والضرر للمؤمنين الخارجين الذاهبين إلى عقر دار قريش، ويكشف القرآن الكريم الأسباب الحقيقية لعدم الخروج معه ويفضحهم، فجاءت هذه الآية ترد عليهم بعد أن فضحتهم، وتقرر ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيتقدم فيها الضر على النفع بما هو متناسب مع السياق الذي جاءت فيه هذه الآية، فالأعراب ما فعلوا الذي فعلوه إلا لإيقاع الضرر بالمؤمنين، ولذلك تعذروا بالأعذار الكاذبة التي لا تتجاوز القول بالألسن دون اعتقاد القلوب، فقلوبهم ملئت وزينت بالظن السيء بالمؤمنين، وأنهم لن

يعودوا سالمين إلى المدينة، فكان الأليق بهذا المقام أن تتقدم لفظة الضر على النفع؛ لأنهم ما تخانلوا عن الخروج إلا خوف الضر، وما أرادوا بالمسلمين إلا الضر، وما كذبوا بأعذارهم إلا إرادة هذا الضر، فجاء الرد عليهم: من يملك أن يقدم لكم شيئاً من دون الله إن أراد بكم ضرّاً، فهل هناك من يصرف ضره، وإن أراد بكم نفعاً فهل هناك من يمنع نفعه.

المبحث الثاني

التقديم لمفردة (النفع) على مفردة (الضرر)

في القرآن الكريم

تقدمت مفردة (النفع) على مفردة (الضرر) في المواضع الثمانية التالية من القرآن الكريم:

المطلب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنِّي هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

هذه الآية جاءت في سورة الأنعام المكية، التي أخذت على عاتقها معالجة موضوع العقيدة بكل مقوماتها ومكوناتها، وخاصة عقيدة الألوهية في تفرد سبحانه وتعالى بالأمر والنهي والحاكمة المطلقة، حيث تتجلى هذه العقيدة في كل مقاطع السورة وأشواطها^(٥١).

وقد جاءت هذه الآية في سياق تقرير المفاصلة في العقيدة بين المؤمنين وبين الكافرين، فقد كذب المشركون بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه الحق، فأمره تعالى بمفاصلتهم ومنابتهم وأن يعرض عنهم، ولكن هذا لا يمنعه من دعوتهم وتبليغهم رغم هذه المفاصلة فقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦) لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَمَا

(٥١) انظر: في ظلال القرآن، ص (١٠١٧/٢).

عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ
يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا
بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

[الأنعام: ٦٦-٧٠]. ثم أمره سبحانه بهذه الصيغة (قل) التي كثر ورودها في
القرآن الكريم في قضايا تحتاج إلى عناية النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعته
ومباشرته لهذه التبليغات بالغة الأهمية. وجاء هذا الاستفهام الإنكاري التكنيبي
﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ مستنكرًا لهم دعوة
وعبادة غير الله بناءً على ما كانوا يقترحونه على النبي صلى الله عليه وسلم
والفئة المؤمنة معه، أو بناءً على لسان حالهم المؤذن برغبتهم في ردة
المسلمين عن دينهم، ثم يصور القرآن لكريم هذا المشهد لهذا الارتداد على
الأعقاب بصورةٍ تقشعر منها النفوس وتأبأها، مشهد ذلك المتحير الذي أشرك
بعد توحيده فتوزع قلبه وتشتت بين الإله الواحد والآلهة المتعددة فيذهب في
التَّيَّه. يقول ابن عاشور: "هذا التركيب البديع صالح للتفكيك بأن يشبه كل جزء
من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبهة بها، بأن يشبه الارتداد
بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون، ويشبه الكفر بالهيام في الأرض، ويشبه
المشركون الذين دَعَوْهُمْ إلى الارتداد بالشیاطين وتُشَبَّه دعوة الله الناس للإيمان
ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى" (٥٢).

وقد تقدم في هذه الآية النفع على الضر بصيغة الفعل المضارع الدال على
استحضار هذه الصورة البشعة أمام الناظرين، في دعوة تلك الآلهة المزعومة
والهالات الكاذبة وهي لا تقدم نفعاً ولا ضرراً. وقد بين الكرمانى أن سبب تقديم
النفع على الضر هنا هو "لسابقة لفظٍ تضمن نفعاً، فقد تقدمه قوله تعالى: (ليس

(٥٢) التحرير والتنوير، ص(٣٠٣/٧).

(٥٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص(٦٩).

لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها" (٥٣). وهذا ملحظ دقيق من الشيخ الكرمانى ويدل على عمق الغوص، ولكنى أظن أن سياق الآيات السابقة كلها تضمن ذكر هذا النفع، فالله تعالى بيّن في الآيات السابقة أن عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وأنه يتوفانا بالليل ويعلم ما جرحنا بالنهار، وهو الذي ينجينا في ظلمات البر والبحر، وهو القادر على أن يبعث علينا عذاباً من كل مكان، ثم بعد ذلك ينهى سبحانه وتعالى عن مجالسة أولئك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً غتراراً بالحياة الدنيا، وأمره أن يذكرهم بأنهم سيحبسون بأعمالهم السيئة في جهنم وليس لهم من ولي ولا شفيع ولا فداء ينفعهم، ثم جاء قوله ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ متناسقاً ومتناغماً مع سياق وسباق الآيات.

المطلب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقد تقدم في سورة يونس قول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فتباينت اللفظتان (الضر) و(النفع) تقديماً وتأخيراً في موضعين متشابهين وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن يكون ذلك لأجل التنوع في الأسلوب والتغيير في العرض، فهذه حجة من قنع لنفسه بالقليل وكفاها مؤونة البحث.

والحق أن كلتا السورتين مكية تشتركان في تناول قضايا العقيدة، إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها المتميزة، ومنهجها الخاص، وأسلوبها المحدد، فسورة الأعراف -كما يرى الاستاذ سيد- "تعالج موضوع العقيدة في مجال التاريخ البشري، مبتدئةً بالجنة والملائ الأعلى، وعائدةً إلى النقطة التي انطلقت منها، وتعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد عليه

الصلاة والسلام، وتعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل أو قبلاً بعد قبيل، ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف حاربتة؟ وكيف وقف الملائكة منها لهذا الموكب بالمرصاد؟ وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا والآخرة^(٥٤).

وسورة يونس - كما تقدم - تعالج موضوع العقيدة بطريقتها الخاصة، فهي تواجه ابتداءً موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي ومن هذا القرآن كله، وتواجه طلبهم واستعجالهم بالوعيد، وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وتقرر لهم صفات الإله الحق وأثار قدرته في الوجود من حولهم، وتعرفهم بحقيقة الدنيا وأنها للابتلاء، ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية، وما يترتب على تكذيبهم بالبعث والآخرة.

وقد جاءت آية الأعراف - مدار البحث - في سياق الحديث عن ذرء الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ لأنهم عطلوا أدوات المعرفة من قلوب لا تفقه، وأعين لا تبصر، وأذان لا تسمع، فمثلهم كالأنعام. ثم بين سبحانه وتعالى أن من سننه: الاستدراج والإملاء للمكذبين، ثم عاب عليهم ما اتهموا به النبي صلى الله عليه وسلم بأن به جنة، وما هو إلا نذير مبين، ثم ذكر سؤالهم عن الساعة، وأنها لا تأتي إلا بغتة، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم وقتها أيضاً. ثم أمره أن يقول لهم: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فقدم في هذا الموضع - دون موضع يونس - ذكر النفع على الضر؛ وذلك كما يرى الإسكافي "أن آية الأعراف جاءت بعد قوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وبعده ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. فكان معنى قوله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٧] لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب إلا ما ملكنيه الله تعالى، فلا أملك

(٥٤) الظلال، (٣/١٢٤٤).

إلا ما مُلِّكت، ولا أعلم إلا ما عُلِّمت، والذي تتساءلون عنه أخفى الغيوب، وأنا لا أعلم منها ما هو أقرب إلى رجم الظنون، ولو علمت الغيب لاستكثرت في السنة المخصصة ما يدفع كلب المجذبة، وقيل: لاستكثرت من العمل الصالح الذي أعتقد أنه أرفع عند الله درجة ... وأما الآية التي في سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى، وقبلها ﴿وَأِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَاِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]. فتقديم الضر على النفع في هذه الآية بخروجها على ذكر العذاب الذي قال الله تعالى فيه بعدها: (أثم إذا ما وقع أمنتكم به...) (٥٥). وإلى مثل هذا ذهب ابن الزبير الغرناطي (٥٦).

وعلى هذا فإن سياق آيتي يونس والأعراف سوَّغ تناوب حالات التقديم للفظتين في الموضعين، فسياق الأعراف سبق بالحديث عن مثل الذي آتاه الله آياته فانسَلَخَ منها، فقد قدم الله تعالى ذكر النفع على ما وقع من هذا الرجل من ضرر فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْءَافِرِينَ﴾ فهو ضر بعد نفع. وبعدها ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فترك النفع ووقع بالضر. وبعدها بآيات ﴿مَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَاُولَٰئِكَ هُم ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فتقدم النفع على الضر. وبعدها بآيات ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَآئِهِٗ سَيجزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فهي أمر بالنفع وترك للضر. ثم بعدها بآيات الحديث عن الساعة وسؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم كأنه حفي عنها؛ فظنوا أنه يعرف وقتها، ولا شك أن العلم بالشيء نفع لصاحبه فأجابهم ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ ثم بين لهم أنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير الذي هو النفع فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسْنِىَ ٱلسُّوءِ﴾ فقدم النفع على الضر.

(٥٥) انظر: درة التنزيل، (ص ١٠١).

(٥٦) انظر: ملاك التأويل، (١/ ٥٧٧-٥٧٨).

يقول أبو حيان: "وقدم - هنا - النفع على الضر؛ لأنه تقدم من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضل فقدّم الهداية على الضلال، وبعده لاستكثر من الخير وما مسّني السوء، فناسب تقديم النفع وقدم الضر في يونس على الأصل؛ لأن العبادة لله تكون خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه" (٥٧).

المطلب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

تقدم ذكر الموضعين في سورة يونس اللذين قدم فيهما لفظ الضر على لفظ النفع لما اقتضاه السياق في كلا الموضعين، وفي هذه الآية جاء تقديم ذكر النفع على ذكر الضر، مما يدعو إلى التساؤل عن سبب هذا التقديم والتأخير في هذه السورة، وبعد هذه الآية مباشرة جاء قوله تعالى ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾. فقدم ذكر الضر على الخير تارة أخرى.

وهذه الآيات جاءت في خاتمة السورة، وقد حوت الخاتمة موضوعات السورة موجزة، ثم كُلِّفَ النبي صلى الله عليه وسلم بإعلانها للناس إعلاناً عاماً حاسماً في قوله ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [يونس: ١٠٤-١٠٥]. فتوحيد الربوبية والحاكمية ونفي الشركاء والشفعاء ورجوع الأمر كله لله جاء في خاتمة هذه السورة.

والحق أن هذا التقديم والتأخير ما بين اللفظتين استوقفني طويلاً في هذا الموضع بالذات، فقرأت السورة ملياً؛ محاولاً استنطاق الآيات للوقوف على

(٥٧) البحر المحيط، ص(٥/٢٤٠).

الغرض البياني لهذا التقديم والتأخير في الآيتين، فوجدت أن السياق السابق بدأ بالحديث عما جرى مع بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم، فبدأت الآيات بنوح عليه السلام الذي قال لقومه ﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، حيث تحداهم وشركاءهم أن يقضوا إليه ولا ينتظروا، فما فعلوا، ولكن الله أغرقهم، ومن على نوح ومن معه بالنجاة في الفلك وبجعلهم خلائف في الأرض. وحدثنا السياق بعد ذلك عما جرى مع موسى عليه السلام وقومه، ثم كيف نجاهم الله سبحانه وتعالى برحمته من القوم الكافرين، وجعل بيوتهم قبلة، ثم جاءت دعوة موسى عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذي ابتلى فرعون وملأه بهذا الخير الكثير الذي ما أدوا شكره، ثم جاءت نعمه أخرى على بني إسرائيل وهي نعمة عبور البحر، ثم غرق فرعون ونعمة الله عليه ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً﴾.

وبعد ذلك يحدثنا السياق عن قوم يونس عليه السلام ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَتْهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وبعدها بآيات يأتي قوله تعالى في سنته مع المؤمنين: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم يأتي هذا المقطع الأخير ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبعدها تأتي الآيتان مدار البحث، حيث قدم في الأولى النفع على الضرر بما ينسجم مع سنته سبحانه وتعالى في إكرامه للمؤمنين ونصرة دينه، فالنفع ظهر جلياً في الآيات السابقة من نجاة الأنبياء السابقين واستخلافهم في

الأرض وإعطائهم النعم الكثيرة، وكيف ينفع الإيمان الأقوام من الهلاك. ثم تأتي هذه الآية الأولى في النهي عن دعوة ما لا ينفع ولا يضر، فهل من أولئك الشركاء والشفعاء من ينفع أتباعه كما ينفع الله تعالى أوليائه وأنبياءه عبر تاريخ كفاحهم الطويل.

ثم يقول سبحانه بعدها مباشرة ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فالآية الأولى نفت عن هذه المعبودات النفع والضرر، وهذه الآية معطوفة على الآية السابقة، ولذلك إذا مسك الضر فلا كاشف له إلا هو ... فلما أسند النفع والضرر إلى الله في هذه الآية قدم ذكر الضر على النفع؛ لأن من المعروف أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح، وهذا الأسلوب يكثر في القرآن في الحديث عن الضر والنفع، ففي هذه السورة جاء قوله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ﴾، وفي الأنعام ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي النحل ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، وفي الإسراء ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبِرَّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾، وفي الروم ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّئِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وفي الزمر ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، وقوله ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقوله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهكذا.

المطلب الرابع

قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ الرعد: ١٦، هذه الآية في سورة الرعد التي موضوعاتها هي ذات الموضوعات في السور المكية، وتتميز هذه السورة بإيقاعاتها وصورها الفنية المميزة، فهي تعرض آيات الله في الأفاق، في السماوات المرفوعة بغير عمد، وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، وفي الليل يغشاها النهار، وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواسٍ ثابتة وأنهار جارية، وجنات وزروع ونخيل مختلف الأشكال، والطعوم والألوان، وفي البرق يخيف ويطمع، والرعد يسبح ويحمد، والملائكة تخاف وتخشع، والصواعق يصيب بها من يشاء...^(٥٨).

لقد جاءت هذه الآية موضع الدراسة في خضم سياق هذه الآيات الكونية وبعد سجود كل المخلوقات لله تعالى في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وتعييب على المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً، فقدمت ذكر النفع على الضر في هذا الموضع من سورة الرعد بينما رأينا العكس في التقديم في سورة الفرقان، واكتفى الخطيب الإسكافي في تعليل تقديم النفع في الرعد بقوله: "فإنه قدم فيه الأفضل على الأنقص لأن اجتلاب النفع أفضل من استدفاع الضر، وهو رتبة فوقه، فمن فاته كمال ذلك طلب دفع الضرر فهو على وجهه في الترتيب"^(٥٩). ولا أظن هذا التعليل يزيل إشكالاً، فمن أين كانت هذه الأفضلية هنا؟ ولم لم يأخذ القرآن بالأفضل في كل المواضع التي اقترنت بها هاتان المفردتان؟

وأظن -والله أعلم- أن سورة الرعد هي سورة المنافع. فالسياق والسباق اللذان جاءت فيهما الآية مداره على نعم الله عز وجل في الأفاق والأنفس، ومما

(٥٨) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ص(٢٠٣٨/٤-٢٠٤٠).

(٥٩) درة التنزيل، ص(١٨١).

يؤكد هذا ما جاء قبلها بآيات من قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وقوله ﴿وَيَسِّحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾، وبعد الآية مدار البحث بآيات ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وبعدها ﴿وَيَذَرُونَا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ وهكذا نجد أن السياق كان في تقديم الأنفع على الضار، والله تعالى أعلم وأحكم.

المطلب الخامس

قوله تعالى في سورة الأنبياء على لسان أبي الأنبياء: ﴿قَالَ أَقْتَعَبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

هذه الآية من سورة الأنبياء المكية التي جاءت تعالج موضوع العقيدة في ميادين: التوحيد والرسالة والبعث، من خلال عرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها، فالعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى، فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان، فتأتي هذه السورة لتستعرض أمة الرسل الواحدة، في سلسلة طويلة استعراضاً سريعاً يطول عند بعض المحطات في تاريخ الرسل ويقصر عند بعضها الآخر. وتعرض السورة بعض مشاهد القيامة لاستجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في العقيدة التي جاء بها خاتم الرسل عليه السلام فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين عنها^(٦٠).

وهذه الآية جاءت في معرض قصة إبراهيم مع قومه، حيث يبدأ السياق من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ثم تحدثت الآيات عن موقفه عليه السلام مع تماثيل قومه ودعوته لهم للإيمان بالله عز وجل

(٦٠) انظر: سيد قطب، الظلال، ص(٤/٢٣٦٥).

الذي خلقهم، ثم توعد له الأَصْنَامَ ثم تحطيمه لها، وعندما قالوا له ﴿ءَأَنْتَ
فَعَلْتَ هَذَا بِإِلهَتِنَا يَبْرَاهِيمُ﴾ أجابهم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ
إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ﴾ فأدركوا الأمر ﴿ثُمَّ نَكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ
مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفُونَ﴾ ثم قال موبخاً لهم ومنكراً عليهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٦٦-٦٧]. وقدم إبراهيم عليه السلام
نفي النفع على نفي الضر عن هذه الأصنام. وهي موافقة لما جاء في آية سورة
الفرقان ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ وسيأتي الحديث
عنها لاحقاً. ولكنهما مخالفين لآية يونس ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ وقد تقدم الحديث عنها.

والذي يبدو -والله تعالى أعلم- أن سياق آيات سورة الأنبياء قد هيأ
لتقديم لفظة النفع على الضر، ذلكم أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان قد
سألهم عن هذه التماثيل ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ولا ريب أن العكوف عليها
إنما هو رجاء المنفعة، ومن ثم درء المفسدة إذ إن العكوف يعني الملازمة
وانتظار الخير. ثم إن إبراهيم عليه السلام قال لهم ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَتَاللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فالرب الذي يدعوهم إليه خلقهم
وخلق أصنامهم، وهو الذي يراهم ويتعاهدهم ويحفظهم، كل هذا يأتي من
لفظة (الرب).

على حين أصنامهم لا تفعل هذا، فهي لا تنفع ولا تضر؛ ولذلك توعدنا
عليه السلام بالكيد، ثم إن في ترك إبراهيم عليه السلام كبير الأصنام: ما يؤكد
دلالة ما أراد من أن هذه الأصنام لا تنفع، فلو كانت تنفع لنفعت بعضها،
ولشهدت على الفاعل. ولكنها لم تفعل، فهي إذن لا تنفع نفسها ولا تضر
غيرها.

المطلب السادس

قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ الفرقان: هذه الآية من سورة الفرقان -وقد تقدم الحديث عن هذه السورة في المطلب الأول- جاءت في سياق مطول من ذكر النعم التي منَّ الله تعالى بها على الناس. ولذلك اكتفى الكرمانى في تسويغ تقديم لفظة (النفع) على (الضرر) في هذا الموضع بقوله: "وفي الفرقان تقدم قوله (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) وعدَّ نعماً جمّةً في الآيات، ثم قال (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) فتأمل فإنه برهان القرآن"^(٦١). والحق أنني كنت قد بدأت بالتأمل قبل أن أقف على رأيه فظننت أنني وقعت على شيء لم ينتبه له أحد من العلماء السابقين وأنا أني قد جئت بما لم يأت به الأوائل، لكنني وقعت على رأيه بعد ذلك فأبَت الحقيقة العلمية إلا أن تثبت للرجل ما قال. فلقد بدأ هذا السياق في تعداد النعم من قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ ثم جاء الحديث عن جعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً، وعن بشرى الرياح وماء السماء الطهور الذي يحيي البلاد الميتة، وكذلك مرج البحرين، حيث جعل بين الماء العذب الفرات وبين الماء الملح الأجاج برزخاً وحجراً محجوراً، ثم هو الذي جعل من الماء كل شيء حي، فجعل منه بشراً نسباً وصهراً، ثم جاء قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ ثم يستمر سياق النعم حتى نهاية السورة.

وهكذا نجد أن هذا الكمّ الهائل من المنافع التي ذكرتها السورة هو المسوغ لأن يعيب عليهم القرآن اتخاذهم آلهة من دون الله لا تنفع ولا تضر، فكانت الكلمات في موقعها اللائق التام الذي يدل على (برهان القرآن) كما ذكر الكرمانى.

(٦١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص(٧٠).

المطلب السابع

قوله تعالى في سورة الشعراء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَكَفِينَ ۖ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٣].

جاءت هذه الآية التي قدم فيها النفع على الضر في سياق حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في هذه السورة المكية التي عرضت لمسيرة كوكبة من الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم. حيث كان للقصص القرآني في هذه السورة الحظ الأوفر والأظهر في تقرير عقيدة التوحيد، والتسلية والتسرية عن قلب الحبيب صلى الله عليه وسلم في مواجهة المشركين المكذبين، وتثبيت للفتة المؤمنة على الحق.

وهذه الآية في هذا الموضع وعلى لسان إبراهيم عليه السلام تقدمت فيها لفظة النفع على لفظة الضر. وهي موافقة لما جاء في سورة الأنبياء، حيث قال نبي الله لقومه: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ وما قيل هناك يمكن أن يقال هنا. فقد عاب نبي الله عليهم عكوفهم على هذه الأصنام، وعكوفهم عليها يعني اعتقاد نفعها وضرها، فقال لهم متنكراً مكذباً ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ﴾ يريد بذلك أن يؤكد لهم أن هذه الآلهة لا تسمع ولا تستجيب، وبالتالي فهي عاجزة عن تقديم النفع. ثم أردف قائلاً ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فقدم النفع لملاءمة ما قبله ثم ملاءمته مع ما يأتي بعده، حيث قال نبي الله لهم بعدها ﴿فَاتَّبِعْهُمْ عَدُوًّا ۖ إِنِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٢] ثم قال لهم بعد ذلك ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٢-٨٧] ثم قال لهم بعد ذلك ﴿وَلَا يَبْعَثُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٨] ثم قال لهم بعد ذلك ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ فالنفع لا يرتجى إلا من الله، وإذا كان الغرض الأساس من عبادتكم لها الحصول على النفع فهذا لن يكون. ثم إنه قدم جزاء المحسنين بالجنة على جزاء الغاوين بالجحيم على اعتبار تقديم ذكر المنفعة على المضرة. وبذلك يظهر تماماً أن لتقديم لفظة النفع على الضر ما يناسبها في سياق وسباق الآيات التي جاءت فيها.

المطلب الثامن

قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢].

جاءت هذه الآية في مشهد من مشاهد هذه السورة الكثيرة تتعلق بصور العذاب يوم القيامة، حيث تتوزع مشاهد العذاب في مواضع كثيرة من هذه السورة المكية التي جاءت تقرر العقيدة، شأنها في ذلك شأن أخواتها من السور المكية مع اختصاصها أكثر بموضوع البعث والجزاء وإحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه (٦٢).

وقد بدأ هذا المشهد الذي جاءت فيه الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجَنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿٤٣﴾ فهاهم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ويستشفعون بهم ويرجون نفعهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، ويعلنون استسلامهم وولاءهم لله وحده، فهؤلاء - فعلاً - كانوا يعبدون شياطين الجن كما كان يفعل الكثير من العرب، وكانوا يستعينون بأولئك الجن على قضاء منافعهم وتدبير شؤونهم، وبالتالي فهم في ذلك الموقف

(٦٢) للمزيد حول أغراض السورة ومحورها وموضوعاتها، انظر: الضلال، ص(٥/٢٨٨٨-٢٨٩٠).

العظيم لا يملك المعبدون من دون الله نفعا يقدمونه للعابدين، فلا الملائكة ولا شياطين الجن ينفعونهم أو يضرّونهم، وجزاؤهم النار بما كانوا يكذبون بها.

ولا شك أن أدنى تأمل في سياق الآيات السابقة يزيد الأمر وضوحاً، فقد تقدم في ذات السورة قصة سبأ التي قال الله فيها ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧]. فقدم ذكر منافعهم على ما أصابهم. ثم قال بعد ذلك ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ﴾ وبعدها ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وبعدها بآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقدم البشرى على الإنذار. وفي ذات السياق ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقدم بسط الرزق على تضيقه وقدم جزاء المحسنين على المعاجزين، ثم عاد فقرر ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وهكذا نجد أن سياقات هذه السورة وسباقاتها قد هيأت وسوغت هذا التقديم لهذه المفردة على أختها، والله تعالى أعلم وأحكم.

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- ارتبطت لفظتا (الضر) و(النفع) في سبعة عشر موضعاً من كتاب الله تعالى، تقدمت فيه لفظة الضر على لفظة النفع في تسعة مواضع من كتاب الله، جاء التقديم فيها لفعل الضر على فعل النفع في ثلاثة مواضع (البقرة/١٠٢، ويونس/١٨، والحج/١٢). ولأسم الضر على اسم النفع في ستة مواضع (المائدة/٧٦، ويونس/٤٩، وطه/٨٩، والحج/١٣، والفرقان/٣، والفتح/١١). وتقدمت لفظة النفع على لفظة الضر في ثمانية مواضع، تقدم فيها فعل النفع على فعل الضر في خمسة مواضع (الأنعام/٧١، يونس/١٠٦، الأنبياء/٦٦، الفرقان/٥٥، الشعراء/٧٣) وأسم النفع على اسم الضر في ثلاثة مواضع (الأعراف/١٨٨، الرعد/١٦، سبأ/٤٢). وهذا يعني أن اللفظتين تبادلتا أدوارهما في كتاب الله تبادلاً متكاملاً.
- تبادلت اللفظتان مواضع التقديم والتأخير بينهما حتى في السورة الواحدة، فقد قدم الضر على النفع في سورة يونس في الآيات (١٨، ٤٩)، وقدم النفع على الضر في الآية (١٠٦)، وكذلك الحال في سورة الفرقان، حيث قدم الضر على النفع في الآية (٣) وقدم النفع على الضر في الآية (٥٥).
- أثبتت هذه الدراسة أن هذا التبادل التكاملي في تقديم كل لفظة على أخرى له أغراضه البيانية المتصلة بسياق الآيات وموضوعات السور التي جاءت فيها سواء أكان ذلك من حيث اللفظ أم من حيث المعنى، فكل لفظة جاءت في الوضع الأليق الذي لو بدلت عنه لذهب الرونق وفسد المعنى، وإن سياق وسباق الآيات هو الذي يسوغ هذا التقديم لإحدى المفردتين على أختها.

هذا، والله الحمد من قبل ومن بعد

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. محمد بن علي بن دقيق العلي. تحقيق: علي بن محمد الهندي، القاهرة، طبعة عام ١٣٧٩هـ.
- ٣ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتابين الكريم. محمد بن محمد بن مصطفى أبو السعود العمادي (٩٨٢هـ)، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
- ٤ - البحر المحيط. محمد بن يوسف الغرناطي أبو حيان الأندلسي (٧٥٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ٢٠٠٥م.
- ٥ - البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، تخريج وتعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ٢٠٠١م.
- ٦ - البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان. محمود بن حمزة الكرمانى (٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق د. السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ٧ - التحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون طبعة وتاريخ.
- ٨ - التعبير القرآني. د. فاضل صالح السامرائي، دار عمان، عمان، ط ٤، ٢٠٠٦م.
- ٩ - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢م.
- ١٠ - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله

- العزیز. أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي (٤٢٠هـ)، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني. دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
- ١١- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م.
- ١٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين محمود الألوسي (١٢٧٠هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ١٩٩٤م.
- ١٣- صفاء الكلمة. د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، طبعة عام ١٩٨٢م.
- ١٤- الصناعتين [الكتابة والشعر]. أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٥٢.
- ١٥- في ظلال القرآن. سيد قطب، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط ١٠، ١٩٨٢م.
- ١٦- الكتاب. عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (١٨٠هـ)، علق عليه ووضع حواشيه: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.
- ١٧- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ومعه: حواشي الانتصاف والكاف الشاف وشرح شواهد الكشف، محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، الكشف دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١م.
- ١٨- لسان العرب. جمال الدين بن مكرم الإفريقي ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.
- ١٩- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، ضبطه وكتبه فهرسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.

- ٢٠- معجم المقاييس في اللغة. أحمد بن الحسين بن فارس بن زكريا ابن فارس(٣٩٥هـ)، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، بدون طبعة وتاريخ، مجلد واحد.
- ٢١- معجم مفردات ألفاظ القرآن. الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (٤٠٣هـ)، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- ٢٢- مفتاح العلوم. أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي(٦٢٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة وتاريخ.
- ٢٣- ملاك التأويل. أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ)، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- ٢٤- الموافقات في أصول الشريعة. أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي(٧٩٠هـ)، وعليه شروح وتخريجات للدكتور عبد الله دراز، دار الحديث، القاهرة، طبعة سنة ٢٠٠٦م.
- ٢٥- النبأ العظيم. د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، طبعة عام ١٩٨٤م.
- ٢٦- نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية. د. المثني عبد الفتاح، دار وائل للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٨م.
- ٢٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي(٨٨٥هـ)، خرج أحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
- ٢٨- نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز. فخر الدين الرازي(٦٠٦هـ)، تحقيق ودراسة: دبكري الشيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.